ما يزالون يعظون الناس بتحريم الخمرة والدعوة إلى النسك والزهد والصلاح ، وهم شرّ الناس يضربون أسوأ الأمثلة ، ويفعلون ما ينهون عنه ، كأنهم مشركون أو كفار يتظاهرون بالدّين . فإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . ورمى النساء بما رمى به الرجالَ فوصفَ عفتهن على هجاء غريب :

ولَسنَ بدَافعات يــوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وليس عكوفهن عــلى المصلّى أمانــاً من غوادرَ مجرمات
ولا تحمدْ حسانك إنْ توافتْ بأيد للسطــور مقــومات

ولعله يريد طبقة خاصة من النساء جاورته وعرفته ، وجاورها وسمع بها تسعى إلى الحلى تتزين به فتنة وإغراء ، وتسعى إلى البعولة وغير البعولة . لذلك حرّم عليهن القراءة والكتابة وألزمهن قعود البيت . ورأى فى خروجهن من الدار خطراً أشد الخطر . واكتفى بأن ذم كل البلاد وهجاها فلم ير الخير فى قطر ، ولم يجد النعمى فى بيت ، ولم يجد الإنسان فى معاصر أو ماض فقال :

كل البلاد ذميمٌ لامقام به وإنْ حللتَ ديار الويل والرهم
إن الحجازَ عن الخيرَات محتجز وما تهــامةُ إلا معدنُ التهم
والشامُ شؤْمٌ وليس اليمنُ فى يمن ويثربُ الآن تثريب على الفهم

فليس فى ديوان العرب أهجى للعرب من شاعر المعرّة ؛ جمع فى دفتىْ قصيده بين هجاء الدّول العربية وذمها فاشتق من اسمها خسة ونقيصة ، فالحجاز محتجز عن الخيرات والشام شؤم واليمن بعيد عن اليمن ، فليس فى الدنيا خير ، وليس فى الحياة إلا التعب ، وهذا بعدٌ فى طلب المثالية وغلو فى تنقص الناس ، لأنهم أبناء آدم وآدم من تراب ، وليس فى التراب أحسن من هذه الطينة . ولسنا نفتش عن الفلسفة والدّقة والصحة فى أقوال هؤلاء الشعراء ، وإنما نستعرض ألوان الهجاء للحياة الاجتماعية خلال العصور ، لنتبين كيف كانت، وكيف عالجها هؤلاء الأدباء ، ولننتهى إلى أن بعضهم أقذع وأفحش وسبّ حتى بلغ الغاية فى الهجاء والذروة فى السباب ، وقد رأى الشاعر الخالدىّ أن يصف قومه المعاصرين بأسلوبه فقال :